بسم الله الرحمن الرحيم

٢٩ — سورة العنكبوت

سميت بها لاشتمالها على آية[١] (مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ) الآية ، المشير إن من اعتمد على قوة الأصنام وحفظها عن العذاب كالعنكبوت، اعتمدت على قوة بيتها التى لاتحتمل مسّ أدنى الحشرات والرياح، وحفظها عن الحر والبرد. وهذا أتمّ فى الدعوة إلى التوحيد الذى هو أعظم مقاصد القرآن . أفاده المهايمىّ .

وهى مكيّة . واستثنى من أولها إلى قوله تعالى[٢] (وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ) وقوله[٣] : (وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ) الآية ويقال إنها آخر مانزل بمكة . وآيها تسع وستون . قال الدانى : متفق عليه .

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤١] . (٢) [٢٩ / العنكبوت / ١١] .
(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٠] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓمٓ)

[٢] (أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[٣] (وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ)

« الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ » أى أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم ، وأظهروا القول بالإيمان ، أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين ، بل يمتحنهم الله بضروب المحن ، حتى يبلو صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم . لتميز المخلص من غير المخلص . كما قال[1] (لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ، وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ) وكقوله[2] (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ) وقوله تعالى[3] (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ، مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ، أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ) وكل هذه الآيات وأمثالها مما نزل بمكة فى تثبيت قلوب المؤمنين ، وتصبيرهم على ما كان ينالهم

(١) [٣ / آل عمران / ١٨٦] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٤٢] .
(٣) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

من أذى المشركين « وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى من أتباع الأنبياء عليهم السلام ، بضروب من الفتن من أعدائهم ، كما دوّن التاريخ اضطهادهم . أى فصبروا وماوهنوا لما أصابهم حتى علت كلمة الله « فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ » أى فى قولهم (ءَامَنَّا) « وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ » أى فيه : وذلك بالامتحان .

فإن قيل : يتوهم من صيغة الفعل أن علمه حدث ، مع أنه قديم . إذ علمه بالشىء قبل وجوده وبعده ، لا يتغير . يجاب بأن الحادث هو تعلق علمه بالمعلوم بعد حدوثه .

وقال الناصر : فائدة . ذكر العلم هٰهنا ، وإن كان سابقاً على وجود المعلوم هو التنبيه بالسبب على المسبب . وهو الجزاء كأنه قال تعالى (ليعلمنهم فليجازينهم بحسب علمه فيهم) .

وقال المهايمىّ : (فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ) أى يظهر علمه عند خلقه بصدق إيمان (ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ) فيه ، بدلالة ثباتهم عليه عند المصائب (وَلَيَعْلَمَنَّ) أى وليظهر علمه بكذب دعوى (ٱلْكَـٰذِبِينَ لئلا يشهدوا عنده بإيمان الكاذبين ، فينسب فى تعذيبهم إلى الظلم . وليثق المؤمنون بصحبة الصادقين ، ويستظهروا بها ، ويحذروا عن مكر الكاذبين . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ، سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[٥] (مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ)

[٦] (وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

[٧] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

«أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا» أى يفوتونا ، فلا نقدر على مجازاتهم بمساوئ أعمالهم « سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى بئس الذى يحكمونه حكمهم « مَن كَانَ يَرْجُواْ

لِقَآءَ ٱللَّـهِ » أى فى الجنة من رؤيته، والفوز بكرامته « فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّـهِ وهو الموت « لَآتٍ » أى فليبادر ما يصدق رجاءه ويحقق أمله من الثبات والتواصى بالحق والصبر والرغبة فيما عنده تعالى . أو المعنى : من كان يرجو لقاء الله ، من كل من صدق فى إيمانه ، وأخلص فى يقينه ، فاعلم أن أجل الله لآت . وهو الوقت الذى جعله أجلا وغاية لظهور النصر والفتح وعلوّ الحق وزهوق الباطل . أى فلا يستبطئنّه. فإنه آت بوعد الله الحق وقوله الصدق. ولم أر من ذكره ولعله أنسب بقرينة السياق والسباق. والله أعلم «وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ» أى السميع لأقوالهم العليم بضمائرهم وأحوالهم « وَمَن جَٰهَدَ » أى فى الصبر على البلاء والثبات على الحق مع ضروب الإيذاء « فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ » أى لأنه يمهد لنفسه ، ما يجنى به ثمرة غرسه « إِنَّ ٱللَّـهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » أى أحسن جزاء أعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا . وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ، إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٩] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ)

« وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا » أى أمرناه أمراً مؤكداً بإيلاء والديه فعلا ذا حسن عظيم «وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ » أى فى الشرك ، إذا حملاك عليه . ومعنى (مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ) أى لا علم لك بإلهيته . قال القاضى: عبر عن نفيها بنفى العلم بها ، للإيذان بأن ما لا يعلم صحته ، لا يجوز اتباعه ، وإن لم يعلم بطلانه. فكيف بما علم بطلانه؟ «إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أى إلىّ مرجع من آمن منكم ومن أشرك . فأجازيكم حق جزائكم. فيه التحذير من متابعتهما على الشرك

والحث على الثبات والاستقامة فى الدين ، بذكر المرجع والوعيد . وقد روى أن سعد بن أبى وقاص الزهرىّ رضى الله عنه حين أسلم ، قالت أمه : يا سعد ! بلغنى أنك قد صبأت . فو الله! لا يظلنى سقف بيت من الضحّ والريح. وإن الطعام والشراب علىّ حرام، حتى تكفر بمحمد وكان أحب ولدها إليها. فأبى سعد. وبقيت ثلاثة أيام كذلك. فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه . فنزلت هذه الآية ، والتى فى لقمان ، والتى فى الأحقاف . فأمره رسول الله ﷺ أن يداريها ويترضاها بالإحسان . وروى الترمذى عن سعد[1] قال : نزلت فىّ أربع آيات . فذكر قصته وقال : قالت أم سعد : أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت ، أو تكفر . فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها. فنزلت هذه الآية

قال ابن كثير : وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائىّ أيضاً .

وقال الترمذىّ : حسن صحيح «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ أى فى زمرة الراسخين فى الصلاح والكمال .

قال الزمخشرىّ : والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين ، وهو متمنى أنبياء الله . قال الله[2] تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام (وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ) وقال[3] فى إبراهيم عليه السلام (وَإِنَّهُو فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ) أو المعنى: فى مدخل الصالحين وهى الجنة . وهذا نحو قوله[4] تعالى (وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم) الآية .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٢٩ ـ سورة العنكبوت ، حدثنا محمد ابن بشار ومحمد بن المثنى .

(٢) [٢٧ / النمل / ١٩] . (٣) [١٦ / النحل / ١٢٢] و [٢٩ / العنكبوت / ٢٧].

(٤) [النساء / ٦٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ،

«وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ » أى جعل ما يصيبه فى الصرف عن الإيمان من ضروب الإيذاء، بسببه ، مثل عذاب الله فى الشدة والهول . فيرتد عن الدين. مع أن مقتضى إيمانه أن يصبر ويتشجع ويتلقى ما يناله فى الله بالرضا ، ويرى العذاب فيه عذوبة والمحنة منحة . فإن العاقبة للتقوى وسعادة الدارين لأهلها «وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى من التلبيس والإخلاص. وهذه الآية كقوله تعالى(١) (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ، فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ إلى قوله(٢) (ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ) وكقوله سبحانه(٣) (ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) وقال تعالى(٤) (فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[١١] (وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ)

---

(١) [٢٢ / الحج / ١١] . (٢) [٢٢ / الحج / ١٢] . (٣) [٤ / النساء / ١٤١].
(٤) [٥ / المائدة / ٥٢] .

[١٢] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ، إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ)

[١٣] (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)

« وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ » أى بإخلاصهم « وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ » ثم بين تعالى حمل كفار قريش لمن آمن على الكفر بالاستمالة ، بعد بيان حملهم لهم عليهم بالأذية ، بقوله « وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ » أى إن كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها بالبعث ، فتبعتها علينا وفى رقابنا .

قال ابن كثير : كما يقول القائل افعل كذا وخطيئتك فى رقبتى . قال الله تعالى تكذيباً لهم «وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ* وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ» وهى أوزار أنفسهم « وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ » أى وأوزاراً أخر مع أوزار أنفسهم . يعنى أوزار الإضلال والحمل على الكفر والصد عن سبيل الله . كما قال تعالى[1] (لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ) وفى الصحيح[2] (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا) «وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ » أى من الأكاذيب والأباطيل . ثم بين تعالى افتتان الأنبياء بأذية أممهم ، إثر بيان افتتان المؤمنين بأذية الكفار ، تأكيدا للإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء ، وحثًّا لهم على الصبر تأسيا بالأنبياء ، فقال سبحانه :

---

(١) [١٦ / النحل / ٢٥] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٧ ـ كتاب العلم ، حديث ١٦ (طبعتنا) عن أبى هريرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ)

[١٥] (فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ)

[١٦] (وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

[١٧] (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ، إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[١٨] (وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ)

[١٩] (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً » أى هذه الحادثة الهائلة موعظة « لِّلْعَٰلَمِينَ * وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا » أى كذبا ، فى تسميتها آلهة وشركاء لله ، وشفعاء إليه « إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِن

تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ » أى التبليغ الذى يزيل كل لبس وما عليه أن يصدقه قومه « أَوَ لَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ » إرشاد إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه مع وضوح دليله ، وذلك بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين . فالذى بدأ هذا ، قادر على إعادته . فإنه سهل عليه ، يسير لديه . فقوله تعالى (ثُمَّ يُعِيدُهُ) عطف على (أو لم يروا) لاعلى (يبدئ) لعدم وقوع الرؤية عليه . فهو إخبار بأنه تعالى يعيد الخلق قياساً على الابتداء . وقد جوز العطف على (يبدئ) بتأويل (الإبداء) بإبداء مايشاهده ، كالنبات وأوراق الأشجار وغيرها . والإعادة بإنشائه تعالى كل سنة ، مثل ما أنشأه فى السنة السابقة من النبات والثمار وغيرها . فإن ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه من غير ريب . فيصح حينئذ العطف.

قال الشهاب : لكنه غير ملاق لما وقع فى غير هذه الآية .

قال: وبهذا التقرير سقط ماقيل: إن أريدبالرؤية العلم فكلاهما معلوم. وإن أريد الإبصار فهماغير مرئيين. مع أنه يجوز أن يجعل ماأخبر بهالله تعالى لتحققه، كأنه مشاهد« إِنَّ ذَٰلِكَ » أى ماذكره ، وهو الإعادة « عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ، ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

[٢١] (يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ، وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)

[٢٢] (وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ، وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

[٢٣] (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢٤] (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ » أى كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتّى. فإن ترتيب النظر على السير فى الأرض، مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين فى أقطارها « ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ » أى الخلق الآخر « إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ » أى بعد النشأة الثانية، وهم المنكرون لها « وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ » وهم المؤمنون بها « وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ » أى بالتوارى فى الأرض ، ولا بالتحصن فى السماء التى هى أفسح منها، لو استطعتم الرقّ فيها. أو القلاع الذاهبة فيها. فيكون المراد بالسماء ما ارتفع. وقيل : المعنى (ولا من فى السماء) فحذف اسم الموصول وهو مبتدأ محذوف الخبر . والتقدير (ولا من فى السماء بمعجزه) والجملة معطوفة على جملة (أنتم بمعجزين) وفيه تكلف وضعف صناعىّ « وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ » أى يدافع عنكم ما يراد بكم « وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » ثم أشار تعالى إلى ما أجاب به قوم إبراهيم، بعد دعوته إياهم وعظاته البالغة، بقوله « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ)

[٢٦] (فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ، وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ، إِنَّهُۥ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[٢٧] (وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُۥ فِى الْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ الصَّـٰلِحِينَ)

[٢٨] (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَـٰلَمِينَ)

[٢٩] (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ، فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ)

« وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا » أى لتتوادّوا بينكم وتتواصلوا، لاجتماعكم على عبادتها «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا» أى تتجاحدون ما كان بينكم، ويلعن الأتباعُ المتبوعين، والمتبوعون الأتباعَ . كما قال تعالى(١) : (كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا) وقال تعالى(٢) (الْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) « وَمَأْوَىٰكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ » .

(١) [٧ / الأعراف / ٣٨] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

تنبيه :

قال السمين : فى (ما) من قوله تعالى(إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم) ثلاثة أوجه :

أحدها ـ أنها موصولة بمعنى (الذى) والعائد محذوف ، وهو المفعول الأول و (أَوْثَٰنًا) مفعول ثان . والخبر (مودة) فى قراءة من رفع . والتقدير : إن الذى اتخذتموه أوثانا مودة ، أى ذو مودة ، أوجعل نفس المودة مبالغة . ومحذوف على قراءة من نصب (مودة) أى : الذى اتخذتموه أوثانا لأجل المودة لا ينفعكم ، أويكون عليكم ،لدلالة قوله (ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ) .

والثانى ـ أن تجعل (ما) كافة و (أوثانا)مفعول به . و(الاتخاذ) ههنا متعد لواحد. أو لاثنين ، والثانى هو (من دون الله) فمن رفع (مودة) كانت خبر مبتدأ مضمر ، أى هى مودة أى ذات مودة . أو جعلت نفس المودة مبالغة . والجملة حينئذ صفة لِـ (أوثانا) أو مستأنفة . ومن نصب كان مفعولاً له ، أو بإضمار (أعنى) .

الثالث ـ أن تجعل (ما مصدرية ، وحينئذ يجوز أن يقدر مضاف من الأول . أى : أن سبب اتخاذكم أوثانا مودة ، فيمن رفع (مودة) ويجوز أن لا يقدر ، بل يجعل نفس الاتخاذ هو المودة مبالغة . ومن القراء من رفع(مودة) غير منونة وجرّ (بينكم) ومنهم من نصب (مودة) منوّنة ونصب (بينكم) ومنهم من نصب (مودة) منونة وجرّ (بينكم). فالرفع تقدم . والنصب تقدم أيضاً فيه وجهان . وجوّز ثالث ، وهو أن يجعل مفعولاً ثانياً عن المبالغة والإضافة ، للاتساع فى الظرف .

ونقل عن عاصم أنه رفع (مودة) غير منونة ونصب (بينكم) وخرجت على إضافة (مودة) للظرف . وإنما بنى لإضافته إلى غير متمكن . اهـ .

وأشار العلامة القاشانىّ إلى جواز أن يكون قوله تعالى (فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) خبراً لِـ (ما) إن كانت اسمية . وهو وجه لم يتعرض له المعْرِبون هنا ، ولا مانع منه . وعبارته :

إنما اتخذتم من دون الله، شيئاً عبدتموه مودودا فيما بينكم (فى الحياة الدنيا) أو: إن كل ماتخذتم من دون الله ، شيئاً مودودا فيما بينكم فى الحياة الدنيا ، أو : إن كل ماتخذتم أوثانا مودود فى هذه الحياة الدنيا . أو لمودة بينكم فى هذه ، على القراءتين .

ثم قال : والمعنى أن المودة قسمان : مودة دنيوية ، ومودة أخروية . والدنيوية منشؤها النفس ، والأخروية منشؤها الروح. فكل مايحب ويودّ من دون الله ، لا لله ولا بمحبة الله، فهو محبوب بالمودة النفسية . وهو هوى زائل ، كلما انقطعت الوصلة البدنية زالت ولم تصل إلى إحدى القيامات ، فإنها نشأت من تركيب البدن واعتدال المزاج . فإذا انحلّ التركيب وانحرف المزاج، تلاشت وبقى التضادّ والتعاند، بمقتضى الطبائع، لقوله تعالى (ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ) الآية . ولهذا شبهها ببيت العنكبوت فى الوهن .

وأما الأخروية فمنشؤها المحبة الإلهية. وتلك المودة هى التى تكون بين الأصفياء والأولياء، لتناسب الصفات ، وتجانس الذوات ، لاتتصفى غاية الصفاء إلا عند زوال التركيب . فيصير يوم القيامة محبة صرفة صافية الهيئة ، بخلاف تلك . انتهى .

« فَـَٔامَنَ لَهُۥ » أى صدق إبراهيم فيما دعاه إليه « لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ » أى من أرض قومى « إِلَىٰ رَبِّىٓ » أى لا إلى غيره بل إلى عبادته وإقامة شعائر دينه والقيام بدعوة الخلق إلى الحق من شرعه وتوحيده « إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ » أى لإبراهيم « إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ » أى ولدا ونافلة، بمباركة الذرية « وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا » أى بإيتاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وانتماء أهل الملك إليه والثناء إلى آخر الدهر والصلاة عليه « وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ » أى الفعلة المتناهية فى القبح « مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى لتحاشى الطباع عنها. ثم فصّلها بعد الإجمال، لزيادة تنفير النفوس منها « أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ » أى سبيل النسل بإتيان ماليس بحرث.

أو بعمل قطاع الطريق من قتل الأنفس وأخذ الأموال « وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ » أى مالا يليق من الأقوال والأفعال « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ)

[٣١] (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ، إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ)

[٣٢] (قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ، قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ، لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

[٣٣] (وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ، إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

« قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ » أى الذين يفسدون كل برهان عقلى ونقلى ، وكل حكمة إلهية « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ » أى بالبشارة بالولد والنافلة ، وهم الملائكة . بعثوا لنصر لوط وتبشيره بهلاك قومه « قَالُوا » أى لإبراهيم عليه السلام « إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ » أى قرية سدوم « إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ » أى بتنزيلهم الرجال منزلة النساء ، وقطع السبل ، وفعل المنكر وترك المعروف « قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ » أى الباقين فى العذاب أو القرية « وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا » أى المذكورون بعد مفارقتهم لإبراهيم عليه السلام « لُوطًا سِيءَ بِهِمْ » أى اعترته المساءة بسببهم مخافة أن يقصدوهم « وَضَاقَ بِهِمْ

ذَرْعاً » أى ضاق بشأنهم ذرعه ، أى طاقته « وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ » أى مِمَّا يصيبهم من العذاب « إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ)

[٣٥] (وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[٣٦] (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

[٣٧] (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ)

[٣٨] (وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ)

« إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ » أى عذابا عظيما من جهتها « بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » يعنى قصتها العجيبة، أو آثارها الخربة « وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ » أى توقعوه ، وما سيقع فيه من فنون الأهوال « وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أى بالبغى على أهلها، كنقص المكيال والميزان، وقطع الطريق على الناس، فإن عاقبة ذلك الدمار « فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ » أى الصيحة التى هى منشأ الزلزلة الشديدة « فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ » أى بلدهم أو منازلهم « جَٰثِمِينَ » أى هلكى ميتين « وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ » أى عقلاء متمكنين من النظر والافتكار بواسطة الرسل عليهم السلام، فإنهم أوضحوا السبل ، فلم يكن لهم فى ذلك عذر ، ولكنهم لم يفعلوا ، عناداً وكبراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ، وَلَقَدْ جَآءَهُمْ مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ)

[٤٠] (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ، فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

«وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ » أى فائتين الله سبحانه. بل لحقهم عذابه فدمرهم تدميرا. ولذا قال «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا » أى ريحاً عاصفاً، فيها حصباء، وهم قوم لوط « وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ » كمدين وثمود « وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ » كقارون « وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا » كقوم نوح وفرعون وقومه « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » أى بفعل مايوجب ذلك ، من البغى والفساد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ، ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ)

[٤٢] (إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

[٤٣] (وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ)

[٤٤] (خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)

« مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا» أى

تعتمد على قوته وتظنه محيطاً بها، دافعاً عنها الحرّ والبرد « وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ » أى أضعفها « لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ » أى لأنه لا يحتمل مسّ أدنى الحيوانات وأضعف الرياح . ولا يدفع شيئاً من الحرّ والبرد . وهذا مثلهم « لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ » أى شيئا مّا. أو إن أولياءهم أوهى من ذلك ثم الغرض من التشبيه هو تقرير وهن دينهم ، وإنه بلغ الغاية فيه ، وهو إما تشبيه مركب من الهيئة المنتزعة، فمدار قطب التمثيل على أن أولياءهم بمنزلة نسج العنكبوت فى ضعف الحال وعدم الصلاحية للاعتماد. وعلى هذا فقوله (وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ) تذييل يعرّف الغرض من التشبيه . وقوله (لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ) إيغال فى تجهيلهم . لأنهم لا يعلمونه مع وضوحه لدى من له أدنى مسكة . وإما أن يكون من تشبيه المفرد، لأن المقصود بيان حال العابد والمعبود. وفى الآية لطائف بيانية ذكرت فى المطولات. وقوله « إِنَّ ٱللَّـهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ » بالياء والتاء فى (تدعون) قراءتان . و (ما) إما استفهامية منصوبة بـ (يدعون) و (من) الثانية للتبيين . أو نافية و(من) مزيدة . و(شىء) مفعول (تدعون) أو مصدرية بمعنى الدعوة و (شىء) مصدر بمعناه أيضاً . أو موصولة مفعول لـ (يعلم) ومفعول (يدعون) عائده المحذوف . والكلام على الأولين تجهيل لهم وتوكيد للمثل . وعلى الآخرين وعيد لهم . أفاده القاضى « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ » يعنى هذا المثل ونظائره فى التنزيل « نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » أى ليقرب ما بعد من أفهامهم . فإن الأمثال والتشبيهات طرق تبرز فيها المعانى المحتجبة للأفهام « وَمَا يَعْقِلُهَآ » أى يدرك حسنها وفوائدها « إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ » أى الراسخون فى العلم الكاملون فيه. وعن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها، إلا أحزننى . لأنى سمعت الله تعالى يقول (وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ)« خَلَقَ ٱللَّـهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ » أى محقًّا مراعياً للحكم والمصالح، مقدساً عن أن يقصد به باطلا . فالباء للملابسة ، والجار والمجرور حال. وهذا كقوله تعالى[1] (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ) « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » .

---

(١) [٤٤ / الدخان / ٣٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (اُتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ، إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ، وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

[٤٦] (وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ، وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ)

«اُتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ » أى تقربا إلى الله تعالى بقراءته، وتحفظاً لألفاظه، واستكثاراً لما فى تضاعيفه من المعانى. فإن القارئ المتأمل قد ينكشف له بالتكرار مالم ينكشف له أول ما قرع سمعه . وتذكيرا للناس ، وحملا لهم على العمل بما فيه ، من الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق « وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ» أى تكون سببا للانتهاء عن ذلك. ففيه تجوز فى الإسناد . فإن قلت: كم من مصلّ يرتكب ولا تنهاه صلاته ! قلت : الصلاة التى هى الصلاة عند الله ، المستحق بها الثواب، أن يدخل فيها مقدما للتوبة النصوح متقيا ، لقوله تعالى (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ) ويصليها خاشعا بالقلب والجوارح . ثم يحوطها بعد أن يصليها ، فلا يحبطها ، فهى الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من لم تأمره صلاته بالمعروف ، وتنهه عن المنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا .

عن الحسن رحمه الله : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فليست صلاته بصلاة ، وهى وبال عليه. أفاده الزمخشرىّ. وقوله تعالى «وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ» قال الزمخشرىّ : أى : وللصلاةُ أكبر من غيرها من الطاعات ، وسماها بذكر الله، كما قال[1]

(١) [٦٢ / الجمعة / ٩] .

(فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ) وإنما قال (ولذكر الله) ليستقل بالتعليل. كأنه قال: ولَلصلاةُ أكبر، لأنها ذكر الله. أو: ولذكر الله عند الفحشاء والمنكر، وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما، أكبر. فكان أولى بأن يَنْهَى من اللطف الذى فى الصلاة. وعن ابن عباس رضى الله عنهما، ولذكر الله إياكم برحمته، أكبر من ذكركم إياه بطاعته. انتهى. فـ(ذكر) على الأولين مصدر مضاف للمفعول. وعلى ما بعدهما مضاف للفاعل، والمفعول محذوف. والمفضل عليه فى الأولين غيره من الطاعات. وفى الأخير قوله (من ذكركم).

وقال الرازىّ: لما ذكر تعالى أمرين، وهما تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة، بيّن ما يوجب أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم، فقال (وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ) وأنتم إذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة، تنبشّون لذلك وتذكرونهم بملء أفواهكم وقلوبكم. لكن ذكر الله أكبر، فينبغى أن يكون على أبلغ وجه التعظيم. وأما الصلاة فكذلك. لأن الله يعلم ما تصنعون. وهذا أحسن صنعكم. فينبغى أن يكون على وجه التعظيم. وفى قوله (وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ) مع حذف بيان ما هو أكبر منه، لطيفة. وهى أن الله لم يقل: أكبر من ذكر فلان، لأن ما نسب إلى غيره بالكبر فله إليه نسبة. إذ لا يقال الجبل أكبر من خردلة وإنما يقال: هذا الجبل أكبر من هـذا الجبل. فأسقط المنسوب كأنه قال (ولذكر الله له الكبر لا لغيره) وهذا كما يقال فى الصلاة (الله أكبر) أى له الكبر لا لغيره. انتهى.

ولما بيّن تعالى طريقة إرشاد المشركين، ونفع من انتفع، وحصول اليأس ممن امتنع، بيّن طريقة إرشاد أهل الكتاب بقوله «وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ» أى بالخصلة التى هى أحسن. وهى اللين والأناة «إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ» أى بالاعتداء، بأن أفحشوا فى المقال وأقذعوا فى الجدال، فلا حرج فى مقابلتهم بالعنف، لتنكبهم عن جادة اللطف. وهذا كما قال تعالى[1] (لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ) وهذه الآية أصل فى آداب المناظرة والجدل «وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ

(١) [٤ / النساء / ١٤٨].

وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» أى مطيعون له خاصة . وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله .

قال ابن كثير : يعنى إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا يقدم على تكذيبه ، لأنه قد يكون حقا . ولا على تصديقه ، فلعله أن يكون باطلا . ولكن يؤمن به إيمانا مجملا معلقا على شرط . وهو أن يكون منزلا ، لامبدلا مؤوّلا . وروى البخارىّ[1] عن أبى هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم . وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون . وهذا الحديث تفرد به البخارىّ .

وروى الإمام أحمد[2] عن أبى نملة الأنصارىّ مرفوعا : إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم . وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله . فإن كان حقًّا لم تكذبوهم ، وإن كان باطلا لم تصدقوهم . ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان . لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل . وما أقل الصدق فيه . ثم ما أقل فائدة كثير منه ، لو كان صحيحا .

روى البخارىّ[3] عن ابن عباس قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء ، وكتابكم الذى أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث . تقرؤونه محضا لم يُشَبْ . وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيّروا ، وكتبوا بأيدهم الكتاب ، وقالوا : هذا من عند الله ليشتروا

(١) أخرجه فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ٢٥ ـ باب قول النبىّ ﷺ : لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء ، حديث ١٩٦٦

(٢) أخرجه بالصفحة رقم ١٣٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٣) أخرجه فى : ٥٢ ـ كتاب الشهادات، ٢٩ ـ باب لا يُسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها ، حديث رقم ١٣٠٠

به ثمناً قليلا . ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا ، والله ! ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم .

وقال البخارىّ[1] : وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب عن الزهرىّ . أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة . وذكر كعب الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب . وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب . معناه أنه يقع منه الكذب من غير قصد . لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة . لأنهم لم يكن فى ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة . ومع ذلك ، وقرب العهد ، وضعت أحاديث كثيرة فى هذه الأمة ، لا يعلمها إلا الله عز وجل . ومن منحه الله علماً علم بذلك . كل بحسبه . ولله الحمد والمنة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ، فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ، وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ)

[٤٨] (وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ، إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ » أى: مثل ذلك الإنزال، أنزلنا إليك الكتاب. أى أنزلناه مصدقا لسائر الكتب السماوية « فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ » أى العرب « مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ » أى فإن ظهور هذا الكتاب الجامع لما

(١) أخرجه فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ٢٥ ـ باب قول النبىّ ﷺ : لاتسألوا أهل الكتاب عن شىء ، حديث ٢٥٩٥

يكفل سعادة الدارين فى شرائعه وقضاياه ، على أمىّ لم يعرف بالقراءة والتعلم ، خارق للعادة . وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفىّ ، ونفى للتجوز فى الإسناد « إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » أى لو كنت ممن يخط ويقرأ ، لقالوا : لعله تعلمه أو كتبه بيده ، من كتبٍ مأثورة عن الأنبياء.

تنبيه :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هـذه الآية دليل على أنه ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب . وفيها ردّ على من زعم أنه كتب . انتهى .

وقال ابن كثير : وهذه صفته فى الكتب المتقدمة . كما قال تعالى[1] (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ » الآية. وهكذا كان رسول الله ﷺ دائما لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده. بل كان له كتّابٌ يكتبون بين يديه الوحى والرسائل إلى الأقاليم. ومن زعم، من متأخرى الفقهاء، كالقاضى ابن الوليد الباجى ومن تابعه ، أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ماقاضى عليه محمد بن عبد الله . فإنما حمله على ذلك رواية[2] فى صحيح البخارى (ثم أخذ فكتب) وهذه محمولة على الرواية الأخرى (ثم أمر فكتب) ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجى ، وتبرأوا منه وأنشدوا فى ذلك أقوالا وخطبوا به فى محافلهم. وإنما أراد الرجل أعنى الباجى فيما يظهر عنه. أنه كتب ذلك على وجه المعجزة. لا أنه كان يحسن الكتابة. وما أورده بعضهم من الحديث ؛ أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة ، فضعيف لا أصل له . انتهى .

وقال الشهاب : وممن ذهب إلى أنه كان يحسن الكتابة ، أبو ذرّ الهروى وأبو الفتح النيسابوريّ وأبو الوليد الباجى من المغاربة . وصنف فيه كتابا ، وسبقه إليه ابن منبه . ولما قال أبو الوليد ذلك ، طعن فيه ورمى بالزندقة وسب على المنابر ، ثم عقد له مجلس فأقام الحجة

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٧] .

(٢) أخرجه فى : ٥٤ ـ كتاب الشروط ، ١٥ ـ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، وكتابة الشروط ، حديث ٨٨١ و ٨٨٢ عن المسوّر بن مخرمة ومروان .

على مدعاه وكتب به إلى علماء الأطراف . فأجابوا بما يوافقه . وأن معرفة الكتابة بعد أميّته لاتنافى المعجزة . بل هى معجزة أخرى ، لكونها من غير تعليم . ورد الإمام محمد بن مفوز كتاب الباجى لما فى الحديث الصحيح[1] (إنا أمة أمية لانكتب ولا نحسب) وقال : كل ماورد فى الحديث من قوله (كتب) فمعناه أمر بالكتابة. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ)

[٥٠] (وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ، قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« بَلْ هُوَ » أى القرآن « ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ » أى العلماء به وحفاظه . وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز ، وكونه محفوظا فى الصدور ، يتلوه أكثر الأمة ظاهرا . بخلاف سائر الكتب . فإنها لم تكن معجزات ، وما كانت تقرأ إلا من المصاحف . ومنه ما جاء فى صفة هذه الأمة (صدورهم أناجيلهم) . كذا فى الكشاف. «وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ * وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ » يعنون ما كانوا يقترحونه فى تعنتهم « قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ » أى هو يملك إنزالها ، ولو شاء لفعل « وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى ليس من شأنى إلا الإنذار وإبانته، لا الإتيان بما تقترحونه. ثم أشار إلى أن فى آية تنزيل الكتاب ، غنية عن كل آية مقترحة . لما أن الدور انقلب من الآيات الآفاقية ، إلى الآيات العلمية ، وفاقا لسنة الترقى ، بقوله سبحانه :

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٣٠ ـ كتاب الصوم، ١٣ ـ باب قول النبىّ ﷺ : لانكتب ولا نحسب ، حديث ٩٦٨ ، عن ابن عمر

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[٥٢] (قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ، يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ)

[٥٣] (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٥٤] (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ)

[٥٥] (يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٥٦] (يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ)

« أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ » أى آية مغنية عما اقترحوه « أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ » أى وفيه نفسه من الآيات والمعجزات ما لا يرتاب معه إلا من سفه نفسه ، وكابر حسه « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » أى الكتاب الذى هو آية مستمرة وحجة بالغة ظاهرة « لَرَحْمَةً » أى لنعمة عظيمة فى هدايته إلى الحق وإلى صراط مستقيم « وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى تذكرة لقوم ، همهم الإيمان دون التعنت « قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا » أى إنى قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم ، وإنكم قابلتمونى بالجحد والتكذيب . يعنى . كفى علمه بذلك . وجوز أن يكون المعنى شهيدا بصدق بالتأييد والحفظ ، أى هو شاهد على ما جئت به ، مصدق له تصديق الشاهد لدعوى المدعى .

قال ابن كثير : أى فلو كنت غير محقّ ، لانتقم منى، كما قال تعالى[1] (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ) وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به. ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات . انتهى « يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى فلا يخفى عليه حالى وحالكم «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ *وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ » أى استهزاء « وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى » أى لكل عذاب أو قوم، وهو وقته المعين له فيهما « لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ » أى عاجلا « وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً » أى فجأة فى الدنيا. كوقعة بدر . فقد كانوا لغرورهم لا يتوقعون غلبة المسلمين . أو فى الآخرة عند نزول الموت بهم (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ » أى ستحيط بهم . أى يستعجلونك بالعذاب وهو واقع بهم لا محالة . أو هى كالمحيطة بهم . لأن كل آت قريب.

« يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى جزاءه « يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ » هذا خطاب لمن لم تمكنه عبادته تعالى وحده فى أرضه ، لإيذائه فى الله واضطهاده فى جانبه ، أن يهاجر عنها إلى بلد مّا ، يقدّر أنه فيه أسلم قلبا ، وأصح دينا ، وآمن نفسا . وأن يتجنب المقام فى بلده على تلك الحالة، كيلا يفتنه الكافرون . أو يعرض نفسه للتهلكة، وقد جعل له منها مخرج . وكون أرض الله واسعة ، مذكور للدلالة على المقدر . وهو كالتوطئة لما بعده . لأنها مع سعتها ، وإمكان التفسح فيها ، لاينبغى الإقامة بأرض لايتيسر بها للمرء مايريده . كما قيل : * وكل مكان ينبت العز طيب * . وقال آخر :

إذا كان أصلى من ترابٍ فكلُّها بلادى ، وكلُّ العالمين أقاربى

---

(١) [٦٩ / الحاقة / ٤٤ ـ ٤٧] .

وقد روى الإمام[1] أحمد عن الزبير: قال: قال رسول الله ﷺ: البلاد بلاد الله،والعباد عباد الله . فحيثما أصبت خيرا فأقم. ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير نزل بها، عند ملكها النجاشيّ رحمه الله . ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة المنورة ، عملا بالآية الكريمة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)

[٥٨] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ، نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ)

[٥٩] (ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[٦٠] (وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ)

[٦١] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ، فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ)

« كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » تحريض على العبادة وإخلاص الدين بتذكير الموت والرجعى . أو تسلية للمهاجر إلى الله ، وتشجيع له ، بأن لا يثبطه عن هجرته خوف الموت بسببها . فلا المقام بأرضه يدفعه ، ولا هجرته عنه تمنعه. وفيه استعارة بديعة لتشبيه

(١) أخرجه فى مسنده بالصفحة ١٦٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ١٤٢٠ (طبعة المعارف) .

الموت بأمر كريه الطعم، مُرِّه « وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَـٰمِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُواْ »أى على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين. وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب « وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » ثم أشار تعالى إلى كفالته لمن هاجر إليه، من الفقر والضيعة، بقوله سبحانه « وَكَأَيِّن » أى: وكم « مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا »أى لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله « اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ » أى يقيّض لها رزقها على ضعفها، ويرزقكم مع قوتكم واجتهادكم. فهو الميسّر والمسهّل لكل مخلوق من رزقه مايصلحه . فلا يختص رزقه ببقعة دون أخرى، بل خيره عامّ وفضله شامل لخلقه ، حيث كانوا وأنّى وجدوا. وقد ظهر مصداق كفالته تعالى لأولئك المهاجرين ، بما وسع عليهم وبسط لهم من طيب الرزق ورغد العيش وسيادة البلاد فى سائر الأمصار. وهذا معنى ماورد مرفوعا (سافروا تصحوا وتغنموا) رواه البيهقىّ « وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم » يعنى هؤلاء المشركين الذين يعبدون معه غيره « مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » أى اعترافا بأنه المنفرد بخلقها « فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ » أى فكيف مع هذا الاعتراف يصرفون عن عبادته وحده، ويشركون بها مالا يضر ولا ينفع . وكثيرا مايقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٢] (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

[٦٣] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

[٦٤] (وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الدَّارَ الْأَخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ)

«اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» أى فيفعل بعلمه ، ما تقتضيه حكمته . «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» أى على أن جعل الحق بحيث لا يجترئ المبطلون على جحوده . وأنه أظهر حجتك عليهم. والمعنى: احمد الله عند جوابهم المذكور على إلزامهم وظهور نعم لا تحصى «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» أى فلذلك يتناقضون حيث ينسبون النعمة إليه، ويعبدون غيره. وقوله «وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ» إشارة إلى ازدراء الدنيا وتحقير شأنها ، وكونها فى سرعة زوالها ، وتقضّى أمرها ، كما يلهّى ويلعب به الصبيان ، ثم يتفرقون عنه. ولا ثمرة إلا التعب. ففى الحصر تشبيه بليغ «وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ» أى دار الحياة الخالدة. ففيه مضاف مقدر. و(الحيوان) مصدر سمى به ذو الحياة ، فى غير هذا المحل . وإيثاره على (الحياة) لما فيه من المبالغة . لأن (فعلان) بالفتح فى المصادر الدالة على الحركة «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» أى لم يؤثروا عليها الدنيا التى حياتها عارضة. وهذا جواب الشرط المقدر ، لعلمه من السياق . وكونها للتمنى بعيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)

[٦٦] (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

[٦٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)

«فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» أى الدعاء. لعلمهم أنه لا ينجيهم من الغرق سواه «فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ» أى من

نعمة النجاة وربح التجارة « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى عاقبة ذلك حين يعاقبون «أَوَلَمْ يَرَوْا» أى أهل مكة « أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءَامِناً » أى لايُغْزى أهله، ولايغار عليهم، مع قلتهم وكثرة العرب « وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » أى يختلسون قتلا ونهبا وسبيا « أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ » أى: أفبعدهذه النعمة الظاهرة وغيرها من النعم، التى لايقدر عليها إلا الله تعالى ، يكفرون خيره ، ويشركون معه غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُ ، أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ)

[٦٩] (وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً » بأن زعم أن له شريكا «أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُ » يعنى الرسول أوالكتاب « أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ » أى موضع إقامة ، جزاء افترائهم وكفرهم . بلى « وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا » أى جاهدوا النفس والشيطان والهوى وأعداء الدين ، من أجلنا ولوجهنا « لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » أى سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا. وذلك بالطاعات والمجاهدات « وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ » أى: أعمالهم بالنصر والمعونة .